

(١)

المصير فى مواجهة الهوية

يبدأ هذا الكتاب كما ينتهى ، بسلسلة من الأسئلة عن الهوية الوطنية ، الإنجليزية والأمريكية . أولاً ، يأتى الإنجليز ، فى السياق التاريخى على الأقل . من هم؟ ما معنى أن تكون إنجليزياً؟ هل هناك الكثير جداً أم القليل جداً مما يتعلق بالإنجليزية؟ هل يمكن أن يكون رجل أسود إنجليزياً؟ أم أن جزءاً من التعريف عنصرى؟ هل يمكن أن يكون المسلم إنجليزياً؟ أم أن جزءاً من التعريف دينى؟ وهل يجب لكى تكون إنجليزياً أن تحب إنجلترا؟ أم يكفى أن تكون فقط مولوداً فى إنجلترا؟ هل جزء من التعريف قانونى؟ أم أنها حالة عقلية؟ وما علاقة هذا بالتاريخ الإنجليزى؟

من الأصعب طرح أسئلة مشابهة عن أمريكا؛ إذ إن هذه ليست هى الموضوعات التى تطرأ على الذهن بصورة تلقائية . فحقيقة أنه لا توجد كلمة Americaness (الأمريكانية) فى الاستخدام المنتظم، والمثال الوحيد الذى صادفنى كان موصولاً بقوة بالوعى الذاتى (American - ness) يجب أن تنبها فى الحال إلى وجود فوارق أساسية . وقليل من الأمريكيين قد يجدون السؤال «ما معنى أن تكون أمريكياً؟» جديراً بأن يطرح، ولا السؤال «هل يمكن لرجل أسود أو رجل مسلم أن يكون أمريكياً؟» فبالنسبة لأى واحد على يسار العنصرية الصريحة، يجب أن تكون الإجابة تلقائياً بنعم ، لا مشكلة فى هذا .

وإذا أعدنا صياغة الأسئلة على نحو مختلف قليلاً ، بحيث نضع المصير بدلاً من الهوية ، فإننا نواجه على الفور بأمور يختلف الأمريكيون حولها بقوة ويأخذونها بجدية بالغة ، إن الإنجليز هم الذين بدأوا فى مواجهة مشاكل فهم السؤال . ما مصير إنجلترا؟ ماذا يمكن أن يعنى هذا؟ أن تهزم إلى الأبد من أستراليا فى الكريكيت؟ ولكن المصير هو مايتناقش حوله الأمريكيون إلى ما لانهاية . إن المعنى الحقيقى أو

الغرض الحقيقي من عبارة «الطريقة الأمريكية» التي تسمى أحياناً «النزعة الأمريكية»، هو الأيديولوجية أو العقيدة الأمريكية. ومن الأمور ذات الدلالة أنه لم يصادفني المعادل اللغوي عن «النزعة الإنجليزية» *Englandism, Englishism* وحيثما تكون هناك كلمة غير موجودة في اللغة، فيرجع السبب إلى أن الناس يشعرون أنهم يستطيعون فهم عالمهم بدونها. ويمكن أن يكون العكس صحيحاً أيضاً. ربما يحتاج الناس إلى مدّ نطاق لغتهم؛ لكي يوسعوا من نطاق إمكانيات الفكر. وقليل من الانتباه «للنزعة الأمريكية» و«النزعة الإنجليزية» يفعل العجائب.

ومن المذهل أيضاً أنه حيثما يكون هناك شيء مثل «نشاط غير أمريكي» - مثلاً السلوك المزعوم المناصر للشيوعية، الذي حققت فيه محاكم التفتيش الأمريكية تحت قيادة السناتور جوزيف ماكارثي في أوائل الخمسينيات من القرن العشرين - يكون من الصعب تصور ما يمكن أن يتكون منه النشاط «غير الإنجليزي»، ويكون من دواعي السرور الإيجابية التفكير في لجنة يشكلها مجلس العموم للتحقيق فيه. ومن المرجح كثيراً أن يكون هذا في منطقة «السلوك السيئ» وليس في منطقة السياسة الرديئة، أو ربما يكون نوعاً من الانتهاك للقواعد المستقرة لدى الإنجليز الذين عرفوا بالتحكم في أنفسهم عاطفياً، وترفعهم. وفي هذا الخصوص لا يكون الوصف «غير إنجليزي» وصفاً سلبياً بصفة خاصة. فالعمات المعذبات اللاتي يعتقدن أن الإنجليز بصفة عامة مقلون للغاية وباردون عاطفياً تجاههن، لا يترددن في أن يحثنهم على أن يكونوا «أقل إنجليزية» في التعبير عن مشاعرهم. ولا يرد على البال أن يطلب كاتب أمريكي مسئول من الأمريكيين أن يكونوا «أقل أمريكية».

ومن المحتمل أن يكون من المفيد جداً للإنجليز (أيا كانوا) أن يعتبروا أمريكا مجتمعاً موازياً ولكنه مختلف، وأن يتعلموا من التشابهات والاختلافات، وبالتالي من الأسباب. بل إنه ربما يكون مفيداً للأمريكيين أن يقوموا بهذه العملية أيضاً. وربما يكون هذا أكثر فائدة مما يدرك معظم الأمريكيين في البداية، والبعض يفعل هذا. وفي كتابه «*American Exceptionalism*» يؤكد سيمور ليبست على أن «من المستحيل أن نفهم بلداً دون أن نرى كيف يختلف عن البلدان الأخرى، وأولئك الذين يعرفون بلداً واحداً فقط لا يعرفون أى بلد». وهو أمر ضروري لهذا الموضوع خاصة، طالما أن مصطلح «استثنائي» يتضمن نموذجاً قياسياً خرجت أمريكا عليه.

ولكن مقارنتنا بين إنجلترا وأمريكا قد لا تخدم هذا الغرض ، طالما أن هناك ، من الناحية التاريخية على الأقل ، أشياء أيضاً مثل «الاستثنائية الإنجليزية» وحتى ولو لم تكن تسمى بهذا الاسم عادة . ومن ثم فإن إنجلترا لا تستطيع تقديم النموذج القياسى . والاستثناءان متصلان ببعضهما : كيف بالضبط؟ هذا هو موضوع هذا الكتاب .

هاتان الأمتان تشتركان فى أصولهما وفى تاريخها إلى نقطة بعينها . والسؤال عن كيف ولماذا صارتا مختلفتين قد يلقى الضوء على الشخصية الوطنية على جانبى المحيط الأطلنطى . وربما تكون الممارسة قد أعطت الأمريكين أسباباً أكثر للفخر بتمايزهم الأمريكى ، وربما يكون الإنجليز قد تعلموا المزيد من الأسئلة المفيدة حول مصيرهم ، ويكون الأمريكيون قد تعلموا أسئلة مفيدة عن هويتهم . وربما يسأل أحد الإنجليز على سبيل المثال ، مثلاً : ألا توجد مشكلة حقاً حول هوية الأمريكين السود؟ من الخارج ، يبدو أنه كانت هناك مشكلة . ففى أرض الأحرار ، ماذا يعنى أن تجبر على أن تكون أمريكياً ، مثلما كان أسلاف العبيد الأوائل قد أجبروا؟ أو أن تكون منحدرًا من مثل هذا الأصل؟ هل هناك استثناءات فى الاستثنائية الأمريكية؟

هذه المسائل لم تكن مختلفة منذ مائة عام مضت ؛ إذ إن الكاتب الأسود والزعيم السياسى الشهير دى بواقال سنة ١٩٠٣ م :

«إنه شعور خاص ، هذا الوعى المزدوج ، هذا الإحساس بالنظر دائما إلى الذات من خلال عيون الآخرين ، والحكم على روح المرء بمقياس عالم ينظر إليه بالاحتقار والشفقة . ويشعر المرء على الدوام بثنائيته - أمريكى وزنجى ، روحان متصارعتان غير متصالحتين ، نموذجان يتقاتلان داخل جسد أسود واحد ، لا تحفظه من أن يتمزق أشلاء سوى قوته العاتية .

إن تاريخ الزنجى الأمريكى هو تاريخ هذا النضال - هذا الشوق - للحصول على رجولته الواعية بالذات ، وأن يضع ذاته المزدوجة فى ذات أفضل وأكثر صدقًا . إنه لن يضىف الصبغة الأفريقية على أمريكا ؛ لأن لدى أمريكا الكثير الذى تعلمه للعالم ولأفريقيا . وهو لن يذيب دماء الزنجية فى فيضان الأمريكية البيضاء ؛ لأنه يعرف أن الدماء الزنجية تحمل رسالة إلى العالم . إنه ببساطة يرغب فى أن يجعل من الممكن للإنسان أن يكون زنجياً وأمريكياً»

وفى كل من إنجلترا وأمريكا ، سيطر على النساء أيضا شعور قوى بأنهن

مستبعدات من عمليات صنع الهوية الوطنية في الماضي، لدرجة أن هناك أسئلة جادة عما إذا كان بوسعهن حمل هوية لم تشاركن في صنعها. وفي إنجلترا، فضلاً عن ذلك، هناك الآن جماعات مهمة أصولها ليست أنجلو-سكسونية بيضاء وروتستانتية، ولم يصلوا على الرغم من عيشتهم في إنجلترا، إلى اعتبار أنفسهم إنجليزاً بمعنى الكلمة. ومسألة ما إذا كانت كلمة «إنجليزي» نفسها تشير إلى جنس أو أمة لم تجد حلاً، مع وجود بعض الناس السود المستعدين لاستخدام الكلمة للدلالة عليهم، والبعض يفضل المصطلح «بريطاني» الأقل تحديداً.

و «الإنجليز البيض» أنفسهم، في الوقت نفسه، يبدو أكثر استعداداً من الناحية النظرية لقبول مفهوم «الإنجليز السود» مما هم في الواقع. ويرجع هذا من ناحية إلى العنصرية، ولكنه يرجع أيضاً من ناحية أخرى إلى العكس- عزوف نيل عن فرض الاندماج الثقافي في «الإنجليزية» بطريقة أصعب أو أسرع مما يراه الأفريقيون أو الآسيويون مقبولاً. بيد أن إحساس «دي بوا» باغتراب السود في أمريكا منذ مائة سنة مضت ليس غائباً عن إنجلترا اليوم. وسيبيل فوينكس التي ولدت في مستعمرة جويانا البريطانية واستقرت في إنجلترا سنة ١٩٥٦ م كتبت عن الحيرة المضنية والالتباسات في هوية البريطانيين السود في كتابها «Belonging To Britain» :

«إنها حقيقة أن المرء أسود وينتمي إلى إنجلترا. فأنت تنتمي - وأنت تعلم أنك تنتمي. ولا يمكن لأحد أن ينتزع هذه الحقيقة. وأنت تصنع مكانك فيها؛ لأنك تعرف أنك تنتمي إليها. ولكن ليس من الممكن أن تكون أسود وأن تشعر أنك تنتمي إلى بريطانيا. ليس هناك فرق، فبسبب إنسانيتك تمضي في العمل، وتصلى وتأمل بأنه سيكون هناك قبول إن أجلاً أو عاجلاً».

ومع هذا، فإن هناك «إنجليز» من الكاثوليك البيض سوف يقولون إن سيبيل فوينكس تمتلك بالفعل العلامة المميزة للإنجليزية، التي صارت مهمة حقاً في الأربعة قرون الأخيرة- أي البروتستانتية- ولذلك فهي بالفعل وشمة للإنجليزية حسبما تحددت تاريخياً، وبطريقة لا تنطبق عليهم.

والإنجليز والأمريكيون (من كل جنس ولون) لديهم من الأمور المشتركة ما هو أكثر بكثير مما بينهم من اختلافات، على الرغم من أن معظمها مخبوء تحت السطح. فالقصص التي يروونها لأنفسهم عن أنفسهم متداخلة. وجزء من أن تكون أمريكياً

هو «ألا تكون إنجليزياً» بمعنى ما، وكذلك يعنى «كنت إنجليزياً ذات مرة» (ويبدو أن هذا ينطبق حتى على أولئك الذين لم يكن أجدادهم من الإنجليز). وإذا لم يكن هناك شيء آخر، فإن الرابطة الإنجليزية لها ثقل كبير فى الموروث. وجزء من أن تكون إنجليزياً «ألا تكون أمريكياً»، وهو مزيج بين الحلو والمر من الازدراء والمودة والحسد. حتى مع هذا، فإن الإنجليز لديهم ثقة مستقرة فى كونهم إنجليزاً أكبر من ثقة الأمريكيين فى كونهم أمريكيين. وعلى أية حال، فإن الإنجليز يقولون لأنفسهم نحن الذين كنا نحكم ذات مرة إمبراطورية كانت تغطى ربع الكرة الأرضية، وبذلك اكتسبنا حق الإعلان عن أننا «كنا هناك وفعلنا ذلك» حتى ولو لم يكلفوا أنفسهم مشقة هذا الإعلان.

وكتبت صحفية أمريكية تعيش فى إنجلترا، وهى برندا مادوكس، بعد الهجمات الإرهابية على نيويورك وواشنطن سنة ٢٠٠١م، بوقت قصير، فى صحيفة «الجارديان»:

«واحد من أقوى الدروس التى تعلمتها من طفولتى فى ماساشوستس هو غرض الولايات المتحدة. فقد بدا وكأن التاريخ الإنسانى برمته يؤدى إلى خلق بلد الرب؛ فيها الحرية والعدالة للجميع. . . لم تكن أمريكا القلعة، وإنما أمريكا الجميلة، آمنة. يحميها الرب والجغرافيا. «من المحيط الأطلنطى إلى المحيط الهادى». وحينما جئت لأعيش فى إنجلترا فى عصر كينيدي، كنت أتكلم بثقة مفرطة عن تفوق الطريقة الأمريكية. وبدأت ذات يوم أقول «فى بلادى. . .» حينما قاطعنى شاب لبق بقوله: «فى بلادى لا نقول فى بلادى». وصدمنى اللوم المهذب بقوة الكشف؛ إذ إن هناك بديلاً للوطنية غير الواعية. ففى بلد متسامح، ناضج واثق بنفسه، لم يكن من الضرورى أن تضع يدك على قلبك وتقول إننى أحب هذا البلد، أو حتى تشير إليه بضمير الملكية. فهل سمعتم أبداً من يقول «ملكتنا» أو حتى «رئيس وزرائنا»؟.

وربما يكون وصف متسامح، وناضج، وواثق من نفسه، وصفاً مجاملاً إلى حد ما لبريطانيا الحديثة، على الرغم من أن الفكاهة والسخرية المعتادة فى وصف الإنجليز لأنفسهم، طالما بقيت، لا يمكن أن تكون علامة على عدم الشعور بالأمان. ويمكن فقط للإنجليز أن ينشدوا «أرض الأمل والمجد» بمزيج من التعاطف والسخرية. وقد يعتبر الأمريكيون نفس المقاربة لنشيد «بارك الرب أمريكا» مقاربة

غير متدينة ولا ولاء فيها. وربما لهذا السبب يمكن للإنجليز أن يسألوا أنفسهم من الأسئلة الفاحصة أكثر مما يمكن للأمريكيين أن يفعلوا؛ إذ إن لديهم عدداً أقل من البقرات المقدسة.

والبلد الجغرافي ليس مجرد مساحة على الخريطة والناس الذين يعيشون فيها، ولكن الوطن هو «جماعة متخيلة»، فكرة ماثلة في أذهان أعضائها. فهم يسكنون بلادهم ويمرون بتجاربهم فيها، وهو ما يُخصَّب خيالهم بذكريات مرئية ومسموعة ومشمومة. وهم يستوعبون هويتهم من خلال أحاسيسهم الفردية وكذلك من خلال ذكرياتهم الجماعية. وأن تكون إنجليزية أو أمريكية يعني أن تكون عضواً في مجتمع بعينه، في وطن، في جماعة من الناس لهم أشياء أساسية معينة مشتركة فيما بينهم (على الرغم من أن التحديد الدقيق لهذه الأشياء ربما يكون محل جدال). وإذا ما كانوا إنجليزاً أو أمريكيين، فإن علاقتهم على مدى ما يقرب من خمسمائة سنة بوطنهم، حكمت خيالهم الديني وكل أنواع الخيال الأخرى. وربما يكون هذا هو السبب في أن الإحساس بهذه الأمور عميق إلى هذه الدرجة. فأنت تكون إنجليزية أو أمريكية يتعلق هناك «بالرب والكون وكل شيء».

ومفهوم الجماعة المتخيلة هو مفهوم ندين به إلى عالم الاجتماع الأمريكي الحكومي بندكت أندرسون، ففي كتابه «Imagined Communities» يجادل بأن الوطن يوجد في مخيلة أعضائه، لأنه حتى في أصغر الأوطان، لا يمكن لأي مواطن أن يعرف كل أبناء الوطن الآخرين، ولكنه مع هذا يشعر أنه مرتبط بهم:

«... إنها جماعة مُتَخَيَّلَةٌ؛ لأنه بغض النظر عن عدم المساواة الفعلية والاستغلال الذي قد يكون سائداً في كل الأوطان، فإن الوطن دائماً يُنظر إليه على أنه رفقة عميقة وأفقية. إنها في التحليل الأخير علاقة الأخوة التي تجعل من الممكن، على مدى القرنين الأخيرين، أن تقبل هذه الملايين العديدة من البشر على الموت في سبيل مثل هذه التخيلات المحدودة».

ومن هنا فإن المواطنين في مثل هذا الوطن يشتركون في هوية مع أناس آخرين لا يعرفهم هو أو هي، ولكن يمكن تخيلهم. وهو لا يشعر بهذه الرابطة مع أبناء الأوطان الأخرى الذين يعيشون فيما وراء الحدود المرسومة لهذا الوطن (وهي حدود غير معروفة أيضاً، ولكنها أيضاً متخيلة إلى حد ما).

ومن الجدير بالاستكشاف بطريقة أكثر دقة ماذا يستدعى ذلك الجهد فى التخيل .
ففى الحالة الإنجليزية ، كان الجهد المطلوب تقليدياً عملاً من أعمال الذاكرة أساساً .
والبحت عن إجابة للسؤال «من نحن»؟ يبدأ بالسؤال ، أولاً «من كنا»؟ وما لم نعرف
من كنا ، فإن الإنجليز سيقولون لأنفسهم نحن لا نعرف من نحن . ولكن فى الحالة
الأمريكية ، يكون فعل التخيل فعل إرادة . والبحت عن إجابة للسؤال «من نحن»؟
يبدأ بسؤال «من نريد أن نكون»؟ .

وهكذا ، فإن إحدى الإجابات تعود بنا القهقري فى الزمن ، على حين تشير
الإجابة الأخرى إلى الأمام . وإحدى الإجابات واضح أنها أكثر حيوية ، والأخرى
أكثر سلبية . فالمستقبل يمكن تغييره ، ولكن الماضى لا يمكن تغييره (على الرغم من
أنه يمكن تغيير الطريقة التى نتخيلها بها) . وفى الحالة الأمريكية ، فمن الواضح أن
خط الأساس هو الثورة الأمريكية والنتائج المباشرة لها على الخيال الأمريكى ؛ إذ إن
الآباء المؤسسين ، فى وثائق مثل إعلان الاستقلال ، والأوراق الفيدرالية ،
والدستور ، وكذلك فى نصوص كثيرة أقل معاصرة ، كانوا يسألون أنفسهم بوعى
سؤال «من نريد أن نكون»؟ . والإجابة ، وهى شاسعة فى مداها ، أنهم كانوا يريدون
أن يكونوا «بلد الرب» : كانوا يريدون أن يكونوا المجتمع الكامل . وكما أعلن
توماس بين نحن فى قوتنا سنبدأ العالم من جديد .

كانوا يتخيلون أمريكا موجودة بفعل الإرادة . وما تخيلوه لم يكن وصفاً لما كان
موجوداً آنذاك ؛ بسبب الظلم الموروث للعبودية ومسألة الهنود الحمر . كان ما
تخيلوه مثلاً ، يجب أن تنمو أمريكا فى اتجاهه . ويصف بولين ماير فى كتابه
«American Scripture» إعلان الاستقلال بأنه «تقرير للقيم التى تعبر أكثر من
غيرها ، لا عن السبب فى انفصالنا عن بريطانيا ، ولا ماذا نكون أو ماذا كنا ، وإنما
تعبير عما يجب أن نكون عليه ، وصفة من المثل التى تربطنا ببعضنا كشعب ، ولكنها
كانت أيضاً فى مركز بعض المنازعات الحاسمة فى تاريخنا» .

هذا هو السبب فى أن المبادئ السامية التى عبر عنها رجال من أمثال جورج
واشنطن وتوماس جيفرسون ، وكلاهما من أصحاب الرقيق ، لا يجب استبعادها
باعتبارها نفاقاً أو أموراً تدعو إلى السخرية ، وإنما باعتبارها أكثر قناعاتهم إخلاصاً .
وفعل التخيل الأمريكى لم يكن فعلاً من أفعال الذاكرة كما هو واضح ؛ لأنه لم تكن
هناك أمريكا موجودة - سوى باعتبارها مستعمرة - قبل ذلك الزمان . وبقدر ما

يتداخل الماضى فى ذلك الحاضر والمستقبل ، فإنها كانت ذكرى عمل سابق من أعمال الإدارة ، وهو الفعل الذى قام به المستوطنون الأوائل فى نيو إنجلاند والذين عقدوا العزم على البقاء والتحمل .

بيد أنهم لم يحددوا أنفسهم على نحو ما كانوا عليه من قبل . إنهم لم يريدوا أن يكونوا هم نفس من كانوا من قبل . والواقع أن البيوريتان فى نيو إنجلاند لم يريدوا هذا بقدر ما كان عبورهم الأطلنطى هرباً منه ؛ لكى يكونوا شيئاً مختلفاً . وقبل الانتشار السريع لعدوى الأحلام الثورية من الشمال إلى الجنوب فى منتصف القرن الثامن عشر ، كان المستوطنون فى فيرجينيا هم الأكثر تحفظاً . فقد كانوا أكثر اهتماماً بتخيل أن جماعتهم موجودة بفعل الذاكرة . إذ كانوا راغبين فى أن يتشبهوا بالطبقة الراقية الإنجليزية ، وأن يفعلوا ما كان عليهم أن يتذكروا أن الطبقة الراقية الإنجليزية تفعله . هاتان الطريقتان فى تخيل أمريكنا توافقتا بالقوة سوية تحت ضغط الغزو العسكرى البريطانى . ولكن التوتر ظل قائماً واصطدم الاتجاهان ثانية فى الحرب الأهلية الأمريكية حينما انتصر فعل الإرادة مجدداً على فعل الذاكرة . ولا يمكن انتزاع هذا تماماً من الحرب الأهلية الإنجليزية فى القرن السابق ، حينما طرح الجناح اليميني من الكافالييه عمل الذاكرة - الاستمرارية ، الملكية والكنيسة بل وحتى الطراز - ضد الجناح اليسارى الذى طرح عمل الإرادة ، وهو بناء مجتمع واضح ولكنه كامل (بيوريتانى) .

وتفسيرات هذه الفروق ليست نفسية أو سياسية خالصة ، وليست مرتبطة بـ «هنا» و «الآن» . إنها تعكس أيضاً ما يفكر الناس فيه حول مكانهم فى العالم ؛ وماذا كان واجبه تجاه الرب وتجاه جيرانهم . وخط الأساس الإنجليزى المعاصر يصعب تمييزه بوضوح . وربما بالنسبة للجيل الحديث من الشعب الإنجليزى لا تزال ذكرى الحرب العالمية الثانية تعيش فى ذاكرتهم الجماعية . والأكثر حضوراً فى الذاكرة هى السنة التى وقفت فيها بريطانيا وحدها - ما بين سقوط فرنسا فى يونيو ١٩٤٠ م وغزو روسيا فى يونيو ١٩٤١ م . والواقع ، وبعيداً عن جلب الراحة إلى البريطانيين ، أن النجاح الأولى الذى أحرزه الجيش الألمانى فى تقدمه تجاه موسكو ، هو الذى زاد من إحساس البريطانيين بعزلتهم المكشوفة . ولم ينته هذا حقاً حتى دخلت الولايات المتحدة الحرب بعد أن هاجمها اليابانيون فى نهاية سنة ١٩٤١ م .

وهكذا فإن الإحساس بكونهم الأمة التى قاومت وحدها الشر المستفحل - الذى

تجسد في الآلة النازية - كان إشارة إلى فترة طالت على مدى ثمانية عشر شهراً . وإذا تحدثنا بالتحديد، فإن بريطانيا، طبعاً، لم تكن وحدها . إذ كانت الإمبراطورية البريطانية أيضاً مشتبكة في الحرب، سواء كانت تريد ذلك أم لا - على الرغم من أنه بصفة عامة كان هناك دليل على أن مناطق آسيا التي حكمها البريطانيون، والتي اعتبرت مستعمرات بريطانية، كانت تفضل السيطرة اليابانية . والأملك البريطانية - وهي بلاد مستقلة احتفظت بالتاج مثل أستراليا ونيوزيلاند وكندا وجنوب أفريقيا - كانت مشتبكة في الحرب بإرادتها، بغض النظر عن الروابط التي تربطها بالبلد الأم . وعلى الرغم من هذا التأييد المعنوي - وكانت كندا فقط قريبة من المساعدة العملية - على مدى تلك الشهور الثمانية عشر، كانت إنجلترا واعية تماماً بحقيقة أن كل الذي كان يفصلها عن قوة الجيش الألماني هو الواحد والعشرون ميلاً عرض القنال الإنجليزي . وبعد خسارة الدبابات والمدفعية في الكارثة العسكرية بدنكرك، لم يكن لدى إنجلترا جيش ميداني فعال لمقاومة الغزو إذا حدث .

وقد نجح الإنجليز من هذه التجربة ليس بسبب ما أرادوا أن يكونوا، وإنما بسبب معرفتهم من كانوا هم . كان تاريخهم هو الذي لم يعطهم أي بديل تاريخي سوى المقاومة، لاسيما تاريخهم في مقاومة العدوان الأوروبي . ولم تكن هناك حقيقة تاريخية معروفة أكثر من حقيقة أن إنجلترا لم تتعرض لغزو ناجح من جيش أجنبي منذ سنة ١٠٦٦، وكما لو أن التسعمائة سنة التي انقضت قد وفرت خندقاً حامياً في الفضاء العقلي أقوى حتى من مضايق دوثر . والحقيقة التاريخية الثانية المعروفة جيداً كانت هزيمة أسطول الأرمادا الإسباني في سنة ١٥٨٨ م، والثالثة انتصار نلسون على الأسطول الفرنسي (ومن ثم تجنب مخاطرة الغزو النابوليوني) في معركة الطرف الأغر سنة ١٨٠٥ م، كان هذا هو الذي زاد من صلابة العصب الوطني سنة ١٩٤٠ م: لقد كان الأمر يتعلق بما كانت عليه إنجلترا، وما كان ما يزال قائماً في مخيلة مواطنيها . وكان هذا كافياً . لقد تولى الرب حمايتها؛ لأن الرب أراد أن تعود ثانية إلى ما كانت عليه من قبل . ولكن إنجلترا كانت لا تحارب من أجل عالم أفضل، إلا إذا كان مفهوماً أنه يعني عالمًا ليس فيه النازيون، لقد كانت تحارب لكي تبقى كما هي . وبسبب موارد الذاكرة المتاحة أمام خيالهم، استطاع الإنجليز مواصلة صمودهم وحدهم أمام النازي على مدى أكثر من سنة فيما كان حقاً ملحمة شجاعة مدهشة في تاريخهم الطويل .

وسجل هذا لا يوجد بشكل خاص فى آفة وثيقة بعينها، على الرغم من أن الخطب التى ألقاها «ونستون تشرشل» زمن الحرب تعتبر مجموعة رائعة من البلاغة الوطنية الإنجليزية. وإحدى فقراته الأكثر شهرة سوف نخدمنا من حيث هى مثال على الكل. وهذه هى الطريقة التى اختتم بها خطبته فى مجلس العموم فى منتصف يونيو ١٩٤٠م، حيث بدأ فى هذا السياق استخدام العبارة الخالدة «معركة بريطانيا»:

«إن ما أسماه الجنرال «ويجاند» معركة فرنسا قد انتهت. وأتوقع أن تكون معركة بريطانيا على وشك البدء. وعلى هذه المعركة يعتمد بقاء الحضارة المسيحية. وعليها تعتمد حياتنا البريطانية الخاصة، والاستمرار الطويل لمؤسساتنا وإمبراطوريتنا. إن كل حنق العدو وقوته لا بد أن ينقلب علينا بسرعة. وهتلر يعرف أنه سيكون عليه أن يكسر هذه الجزيرة أو يخسر الحرب. وإذا استطعنا أن نقف فى وجهه، فربما أمكن أن تكون أوروبا كلها حرة وربما تقدمت حياة العالم إلى الأمام فى أرض رحبة مشرقة. ولكن إذا فشلنا، فإن العالم بأسره بما فى ذلك الولايات المتحدة، وبما فى ذلك كل ما عرفناه واهتمنا به، سوف يغوص فى غياهب عصر ظلمات جديد أكثر شؤماً وربما أطول مدة بأضواء العلم المنحرف عن هدفه. فلننصرف إذن إلى واجباتنا، ونحمل أنفسنا على أنه إذا استمرت الإمبراطورية البريطانية والكومنولث ألف سنة، فإن الناس سوف يقولون: كانت تلك أروع ساعة فى تاريخهم».

هذا التمييز، بين أمريكا التى تتخيل نفسها موجودة بالإيمان فى المستقبل، وبين إنجلترا التى تتخيل نفسها فى الوجود بتذكر ماضيها، يحمل بعض التطابق مع التقسيم التقليدى للأغماط السياسية فى كلا البلدين إلى معسكرين أيديولوجيين منفصلين، الهويج والتورى. إذ كان الهويج يؤمنون بالتقدم، أى أن الأمور مرسومة على أساس أن تتحسن، فبالنسبة لهم، الأفضل لم يأت بعد. أما التورى فكانوا يؤمنون بالتقاليد. وبالنسبة لهم الأفضل موجود هنا الآن، أو أنه كان موجوداً فى الماضى بالفعل. وهناك تورى فى أمريكا، وهويج فى إنجلترا، ولكن هذه هى الأغماط السائدة: التفاؤل ضد الحنين إلى الماضى، القلق ضد القصور الذاتى.

إن تعريف الإنجليزية لأنفسهم، وتصورهم على أنهم جماعة وطنية حسب مصطلحات أندرسون، يمكن أن نجده، بصورة ممتازة، فى الاحتفال الوطنى الذى

حدث بعد سنوات قليلة من نهاية الحرب ، عند تتويج الملكة إليزابيث الثانية فى سنة ١٩٥٣ م . لقد كان احتفالاً مجدداً ، وكثيراً ما جرى وصفه فى الصحف على أنه بداية عصر إليزابيثى جديد (وبذلك احتفالاً بأمجاد العصر السابق) . لقد كان تجديداً لخيال قديم ، ولم يكن تخيلاً لشيء جديد . لقد كان فعلاً أقل جسارة من تخيل الذات من الفعل الأمريكى ، وعلى الأقل من الناحية الظاهرية ، كان فعلاً من أفعال الخيال الدينى . ولا يعنى هذا أن الفعل الأمريكى فى التخييل الوطنى لم يكن دينياً ، فقط أنه لم يأخذ مكانه فى مجرى احتفال دينى مسيحي خاص مثلما حدث فى حفل التتويج . وبطرق أقل وضوحاً ، كان الفعل الأمريكى أكثر ، وليس أقل ، دينية من الفعل الإنجليزى . وفى قلب الفعل الإنجليزى لتخييل الذات كانت الاستمرارية . وفى معظم الوقت لا يتطلب ذلك شيئاً أكثر من القصور الذاتى العنيد (على الرغم من أنه فى سنة ١٩٤٠ - ١٩٤١ م ، كان يتطلب أيضاً شجاعة فائقة) .

وأهمية التتويج الذى جرى سنة ١٩٥٣ كما أمكن رؤيتها فى هذا الضوء ، جرت دراستها بشكل أوفى فى فصل لاحق . وسوف أكتفى الآن بالنظر سريعاً إلى معادل أكثر معاصرة ، وهو القسم وخطبة الافتتاح التى ألقاها الرئيس «جورج دبليو بوش» فى يناير ٢٠٠١ م . فقد استخدم إحالات دينية صريحة ، بيد أنه من الجدير بالملاحظة أن هذه الفقرات من خطبته لم تتسبب فى أى جدل . فمن المتوقع أن الرؤساء الأمريكين سوف يتكلمون هكذا ، بينما سيكون من غير المقنع أن يفعل أى رئيس وزراء بريطانى هذا . ففى بريطانيا ، المكان الصحيح للاعتراف بيد الرب فى شئون الوطن هو حفل التتويج أو شيء شبيه به . وربما يكون لحفل تنصيب رئيس أمريكى ظل من التتويج . ففى خطابه استغرق السيد بوش بطريقة وطنية فى الحديث عن مكان أمريكا فى المشروع العظيم للأمر ، فقد أعلن :

«الأمريكيون كرماء وأقوياء ومحترمون ، ليس لأننا نؤمن بأنفسنا ولكن لأننا نحمل إيماناً بما يتعدى ذواتنا . وحينما نفتقد روح المواطنة هذه لا يمكن لأى برنامج حكومى أن يحل محلها . وعندما تكون هذه الروح موجودة لا يمكن لأى شر أن يقف فى مواجهتها .

فبعد توقيع إعلان الاستقلال ، كتب رجل الدولة فى فيرجينيا «جون بيج» إلى توماس چيفرسون : «نحن نعرف أن السباق لا يكسبه الأسرع ولا المعركة يكسبها الأقوى . ألا تعتقد أن ملاكاً يركب الريح ويوجه هذه العاصفة؟»

وقد مرّ زمن طويل منذ تولى جيفرسون الرئاسة . وتراكت السنون والتغييرات . ولكن الموضوعات الرئاسية التي كان عليه أن يعرفها في ذلك اليوم : هي قصة وطننا الكبرى في الشجاعة ، حلمها البسيط في الكرامة . لسنا نحن الذين كتبنا هذه القصة ، وإنما من يملأ الزمن والخلود بمشيئة . بيد أن تحقيق هدف الرب هو واجبنا ، وواجبنا يتحقق في خدمة كل منا الآخر .

ونحن لا نتعب أبداً ، ولا نستسلم أبداً ، ولا ننتهي أبداً ، وبذلك نجدد هذا الهدف اليوم ؛ لكي نجعل بلادنا أكثر عدلاً وكرماً ، ولكي نؤكد كرامة حياتنا وكل حياة . هذا العمل يستمر . وتمضى هذه القصة .

وما يزال هناك ملاك يركب الريح ويوجه هذه العاصفة . فليبارككم الرب جميعاً ، وليبارك الرب أمريكا .

والحجة التي يقوم عليها هذا الكتاب هي أننا لن نصل أبداً إلى أغوار هذه المسائل عن الهوية الوطنية والمصير الوطني ، حتى نؤمن بالبعد الديني مثلما نؤمن بالأبعاد الأخرى ، ونعطي الوزن المناسب له مع الأبعاد الأخرى . وسوف نجد أنه لم يأخذ وزنه الصحيح في الماضي - على مدى فترة طويلة أخذ وزناً أكثر مما يستحق ، وفي الوقت الحالي (كرد فعل بلا شك) أخذ وزناً أقل مما يستحق - ولكن أولئك الذين يطبقون أفكارهم الحديثة على الماضي يحملون عقلية حديثة ، وهي فن المؤرخين في التجاوز ، ولكنهم لا ينجحون دائماً .

والدين مكون داخلي أساسي أثقل وزناً في هذه القصص الوطنية مما قد يتوقع معظم الإنجليز أو الأمريكيين المحدثين . كما أنه غير عادي ، وأشد مخالفة للأذواق الحديثة ، وأكثر درامية في تأثيراته . كما أنه مثير للجدل بشكل أشد كثافة ، كما أن المجادلات مثيرة إلى أبعد الحدود . وهذا ليس نوعاً من الحفريات الجافة . إنه بحث عن البنادق التي ينبعث منها الدخان . وأولئك الذين يحبون توزيع اللوم على الجميع سيجدون متعة كبيرة . وحقيقة أن القراء المحدثين لم يعودوا يشاركون في الخيال الديني للقرن السادس عشر أو القرن الثامن عشر ، لا تعني أن هذه الأفكار غير شاملة ، وإنما تعني فقط أنهم لم يعودوا عليها . والواقع أننا ربما نكتشف أننا ما نزال نشارك فيها بقدر أكبر مما كنا نتوقعه .

وفي كل من الحالة الإنجليزية والحالة الأمريكية ، كان البعد الديني يجيب على أسئلة

عن الهوية والوطنية والغرض ، وهى أسئلة لم تتم الإجابة عنها بما يكفى بأية طريقة أخرى . والإنجليز متقدمون فعلاً على الأمريكيين فى البحث عن الحلول البديلة غير الدينية ، ولكن هذا ليس أمراً سهلاً المنال ؛ إذ إنهم ما يزالون فى انتظار الإجابات التى يعرفون أنها لن تخدمهم بشكل جيد تماماً بعد ذلك . والمقارنات هنا ربما تكون مفيدة للأمريكيين والإنجليز على السواء . وذات مرة كان بوسع الإنجليز أن يظهروا لأبناء عمومتهم الأمريكيين لمحة عن مستقبلهم الممكن ، ويحذروهم من الأخطاء التى يجب تجنبها . وربما يكون الدرس أنه إذا توقف وطن مثل إنجلترا أو أمريكا عن الإيمان بمصيره مرة ، فإن المشكلة التالية الذى عليه أن يواجهها تكون حول مصيره . أو أن الوطن الذى لديه إحساس واضح بمصيره لن يجد صعوبة بشأن هويته .

من الواضح أن الاهتمام بالتاريخ الأمريكى لا يمكن أن يستبعد التاريخ الدينى . وحيث يبدو أن الكتاب جميعاً يتفقون على أنه بدون الدين لما كانت هناك أمريكا يكتبون عنها ، وبالتأكيد لما كانت هناك نزعة أمريكية ، ولا عقيدة وطنية ، ولا إعلان مصير ولا استثنائية أمريكية . وليس من المدهش أن هناك شعوراً معاصراً لدى معظم الأمريكيين الذين يكتبون عن الديانة الأمريكية . وحتى عندما يكون الكاتب مهموماً بالماضى ، فإنه لا يكون أقل توجهاً إلى الحاضر والمستقبل . وليس السبب فى هذا راجعاً فقط إلى أن الدين يبقى ضارباً بجذوره فى أعماق طريقة الحياة الأمريكية . والحقيقة أن معظم هذه الكتابات تقوم بها ، ولصالحها ، الجماعة الأكاديمية . إنه خطاب من داخل المثقفين . وفى أمريكا (كما فى إنجلترا) ، فإن هذه إحدى البيئات الأكثر علمانية عقلانية ، حيث يكون الدين أقل تجذراً . بيد أن الأكاديميين ما يزالون يهتمون به ، وإذا لم يكن جل اهتمامهم بما هو عليه الآن ، فإنه ينصب على الكيفية التى كان عليها ذات مرة .

ولكن هذا ليس محل اهتمام الإنجليز . فإذا كان البحث فى حالة الروح الأمريكية منذ مائتى سنة مضت يُظن أنه يلقى الضوء على حالة الروح الأمريكية الآن . ليس فقط من خلال التشابهات ولكن من خلال الاختلافات أيضاً . فإن هذه المقاربة لا تحظى بتقدير كبير فى الحياة الفكرية للإنجليز . ويخرج سكروتون عن العادة وهو يقرر :

« بدون هذا البعد الدينى لا تظهر الأوطان والبلاد كهويات أخلاقية محددة فى وضوح . وبطبيعة الحال ، يمكن أن تكون هناك دول بدون دين . والعالم الحديث ملء بها . . . ولا يوجد طالب يدرس التاريخ الإنجليزى يفوته أن يرى أن الدين كان

منذ البداية مخلوطاً بمعنى التاريخ الإنجليزي ، وأن تاريخ الديانة الإنجليزية وتاريخ إنجلترا في كثير من الحقب لا ينفصلان» .

بيد أن هذا ليس رأياً شائعاً . وأحد الأسباب هو أن هذه المناقشات غالباً ما كانت في الماضي ليست نتاجاً ، كما في هذه الحالة ، بوصفها أوصافاً موضوعية لحقيقة ثقافية ، ولكن بوصفها تأنيباً أخلاقياً من جانب أولئك الذين كان لهم اهتمام واسع بأن يرى الوطن يعود إلى طريقة الكنيسة . وإذا ما قيل لأحد إن أحداً لا يمكن أن يكون وطنياً دون أن يكون متديناً ، فإذن يمكن للمرء أن يكون إما وطنياً ومتديناً في آن معاً ، أو لا يكون وطنياً ولا متديناً . وإذا كان أمام الإنجليزي الخيار ، فإنهم مالوا تجاه الاختيار الأخير ، حتى مع أن أولئك الذين قدموا الاختيار كانوا يريدون منهم الاختيار الأول .

ويبدو أحيانا كما لو أن هناك مؤامرة للتظاهر بأن الإنجليزي لم يؤمنوا أبداً بشيء يختلف عما يؤمنون به الآن ، وهو ما يتجه ، بأى معنى مذهبي أو تنظيمي ، لأن يكون قليلا للغاية . فالمنامخ الديني قبل وقوع الحرب الأهلية الإنجليزية ما يزال يجتذب البحث العلمي . وقد حدثت طفرة إصلاحية في نزعة المراجعة التاريخية فرضت إعادة التفكير - صوب صيغة أقل انتصاراً للقصة التاريخية الوطنية - في جوانب بعينها من التراث المقبول عن التاريخ الإنجليزي في القرن السادس عشر . وقد ظهرت هذه المناقشات في الكتب ، والمجلات والصحف والتليفزيون حول موضوعات كانت محرمة ذات مرة ، مثل ما إن شكسبير (الذي حظي باختياره رجل الألفية الإنجليزية في استطلاع للرأي) كان أو لم يكن كاثوليكياً رومانياً ، وأولئك الذين قالوا إنه كان كذلك نالوا مكافآتهم بالنقاط ، على الأقل في هذه المرحلة من النقاش .

ولكن بينما استمرت سير الأفراد التاريخيين المتميزين أو غير العاديين تباع بشكل جيد ، فليس من المناسب للعصر أن يعول الكتاب على أفكارهم أو مشاعرهم الدينية . والواقع ، أنه نما انحياز ثقافي عام في إنجلترا يتناول الروابط الدينية ، سواء في الحاضر أو في الماضي ، إما على أنها غاية في الخصوصية أو باعتبارها هامشية جدا بحيث لا تستحق الكثير من الالتفات .

وعندما قام روى هاترسلي ، النائب السابق لزعيم حزب العمال - وهو الآن من مشاهير العمال وله عمود صحفي - بجذب الانتباه سنة ٢٠٠١ م إلى وجود أتباع

الكنيسة الكاثوليكية الرومانية في مراكز قيادية في السياسة البريطانية، كانت هناك دهشة من نوع ما؛ لأنه ظن أن الأمر يستحق الذكر. إذ إنه أبرز أنه كان من الممكن تماماً بحلول وقت الانتخابات العامة البريطانية التالية، ربما تكون جميع الأحزاب السياسية الرئيسية الثلاثة تحت قيادة كاثوليك رومان. وكان تشارلز كينيدي زعيم الأحرار الديمقراطيون واحداً منهم بالفعل، وكذلك كان إين دونكان سميث، في ذلك الوقت ينافس على زعامة حزب التوري (وقد نجح في ذلك). كما أن توني بليير معروف بأنه متزوج من كاثوليكية وله أولاد كاثوليك، يذهب معهم بانتظام إلى قداس يوم الأحد. كما أنه شوهد عدة مرات في كاتدرائية ويستمنستر بمفرده؛ مما يؤدي إلى التفكير في أنه قد يتحول إلى هذا المذهب. وقد اعتاد بانتظام أن يصحب زوجته إلى المذبح للعشاء الرباني، حتى توقفت هذه الممارسة. وهي ضد القواعد الكاثوليكية، ولكنها شائعة بين الأنجليكان المتزوجين من كاثوليك. بناءً على طلب من الكاردينال باسيل هيوم. وقد أوضح هاترسلي أنه هو نفسه لم يكن كاثوليكياً، بيد أنه لم يبح بسر التحول المثير الذي يقول إن والده كان قسيساً كاثوليكياً مشهوراً في شيفليد قبل الحرب العالمية الثانية، وترك منصبه الكنسي ليتزوج والدة هاترسلي.

وكان الهياج الذي سببته مقالته قليلاً لدرجة أن زميله صاحب العمود في جريدة الجارديان مايكل هوايت، زعم أيضاً أنه أول من لاحظ الشيء نفسه بعد ذلك بثلاثة أشهر. وكتب: «منذ أقل من جيل مضى كان وجود الكاثوليك بمعدل ٢, ٥ على رأس كل حزب من الأحزاب الثلاثة الكبيرة لدينا قد يبدو أمراً غير وارد، كانت السيطرة على هذا النحو ما تزال قوية، ولكن أحداً لم يكن يتحدث عنها غالباً، للموروث البروتستانتي في بريطانيا على كل الأركان والشقوق العليا في المؤسسة». مرة أخرى لم تكن هناك شهية في الصحافة لإثارة الجدل الديني، الذي قد يأخذه البعض على أنه علامة على نضج الجماهير، والبعض على أنه إثم وجهد. وهذا العزوف عن ملاحظة وجود الدين في الحياة العامة حتى عندما يكون واضحاً كما اتضح أثناء رئاسة مارجريت تاتشر للوزارة. ففي وقت ما كان هناك ستة من اليهود العاملين في وزارتها (أي ربع المجموع). لقد كان ذلك حقاً أمراً لا يستحق الذكر، حتى على الرغم من أنه لم يكن من الصعب ملاحظة علاقة معينة بين السياسات التي

كانت تتتهجها ومبدأ مراعاة مصالح العمل لدى الجماعة اليهودية البريطانية . وحسبما يقول جراهام تيرنر، الذى كتب فى صحيفة «الدبلى تلجراف»، فإن الملكة سألت ذات مرة، روبرت رونس، الذى كان كبير أساقفة كانتربورى آنذاك، عما إذا كان يعتبر مسز تاتشر امرأة متدينة، ويقال إنه أجاب: «أظن أنها عبرانية أكثر منها مسيحية» .

* * *

والتحفظ الأمريكى حول تأكيد نفوذ الدين له أصول . وإذا تحقق المرء من وجود رغبة فى التناول الأكاديمى القياسى لكبحها، فإن هذه الرغبة إنما تتأتى إلى حد كبير من رفض تسليم ملكية ماضى أمريكا إلى الحركات الدينية المذهبية والأصولية، وهى تواقفة تماما للاستيلاء على هذا الماضى . والخوف غير المعلن يبدو أنه من التسليم طواعية بأن جورج واشنطن أو توماس جيفرسون، مثلا، كانت لهما عقلية دينية فى زمانهما، ربما تكون ذخيرة أكثر من اللازم لأولئك الذين لهم عقلية دينية اليوم . إذ إن لهم أچندتهم الخاصة . وسوف يصيرون بسرور: «كان جورج واشنطن واحداً منا، ومن ثم فلتفعلوا ما نقوله»، حتى على الرغم من أن عقليته الدينية، فى الحقيقة، لم تكن أكثر من أنه كان ابن عصره . ومن المحتمل أنه كان متدينا مثل أقرانه، وكان الدين بالنسبة له مسألة خاصة . وفى مقدمته لطبعة Everyman من كتاب «الصلوات العامة» «Book of the Comman Prayer» لكنيسة إنجلترا، يقدر «ديار ميد ماكو للوش» أن ثلثى الذين وقعوا إعلان الاستقلال وكذلك ثلثى الذين وقعوا الدستور الأمريكى كانوا من الأنجليكانيين الأمريكيين «الذين كانت حياتهم الدينية قد تشكلت بفعل كتاب الصلوات العامة سنة ١٦٦٢ م» . وربما كان يضيف كذلك، والذين تشكل إحساسهم بالاستخدام الصحيح للغة الإنجليزية قد تشكل أيضا على نفس النحو، مع العودة كثيرا إلى النسخة المعتمدة للكتاب المقدس (والتي يسميها الأمريكيون نسخة الملك جيمس) .

وعادة ما يوصف واشنطن وجيفرسون، ومعهم جيمس ماديسون وبنيامين فرانكين وچون آدمز وكثيرون غيرهم، بأنهم يؤمنون بالرب وحده، ويفترض على أساس ذلك أنهم لا يكثرثون دينيا، ولو أنهم ليسوا معادين للدين، فهم أبناء عصر التنوير وورثة فولتير .

وهناك مفهوم عميق الجذور بأن أمريكا برزت من طيات الحرب ضد بريطانيا ومن ثم كانت صياغة جمهورية جديدة علمانية . ولكن عندما صار المؤرخون بالتدريج أكثر اهتماما بالمصادر منهم بالنظريات ، فثمة رأى آخر ينتشر ببطء . كان هناك قدر كبير من الدين فى أمريكا أواخر القرن الثامن عشر . وقد تشبعت به الثقافة واللغة ، وكما يكتب ج . س . د . كلارك فى كتابه «The Language of Liberty» ، وهو أحد الكتب بالغة الأهمية والتأثير ، وعلامة على هذا التغير بين المؤرخين :

«قامت دراسات كثيرة للسياسة فى بريطانيا وأمريكا فى أواخر القرن الثامن عشر على أساس رؤية التنوير باعتباره عملية علمنة تحتضن كضرورة اتحادية الشك الأرسطراطى والمادية البورجوازية والتحرر البروليتارى من العلاقات الاجتماعية البروليتارية . ومع هذا فإن كلاً من هذه الأجزاء المكونة ، واجه التحدى بشكل منفصل ، وفى النهاية يتزايد التساؤل حول هذا التجمع نفسه . . . إذ إن تأييد النخبة للدين فى شكل الكنيسة القائمة كان قوياً ، ويتم التأكيد عليه من فترة لأخرى فى الأزمات السياسية من عودة الملكية فى إنجلترا إلى الثورة سنة ١٦٨٨م إلى التحدى الثورى الفرنسى فى تسعينيات القرن الثامن عشر وما تلاها . وقد فشلت الطبقات الوسطى فى المجتمع بشكل ملحوظ فى تطوير وعى جماعى ، سواء كطبقة تجارية بورجوازية أو طبقة وسطى . وكان ارتباطهم بالكنيسة أو الانشقاق عنها أكثر وضوحاً حتى من ارتباط النخبة . وأخيراً إذا كانت نسب الحضور فى الكنيسة قد تدهورت فعلاً بين الناس بعد سنة ١٦٨٩م ، فمن الواضح الآن أن هذا لا يمكن تفسيره ببساطة أو بسهولة على أنه تحرر فى نطاق نظام اجتماعى جديد . ولا شك فى أن الأشكال الأبوية قد عدلت ، بيد أن بنية السلطة والنظام كانت ما تزال مرتبطة بعالم عقلى يختلف جداً عن النزعة النفعية فى القرن التاسع عشر . وكانت الكتابة التى تنسب تقليدياً إلى حركة التنوير فى إنجلترا ، بعيدة تماماً عن كونها علمانية ، مغرقة بالجدل اللاهوتى والكنسى ، ولم يكن الانشقاق هو الطريق السريع إلى العلمنة . . .» .

وترى بعض الدوائر فى عبارة «إيمان الآباء المؤسسين بالرب وحده» مرادفاً لعبارة «أبعدوا أيديكم الجمهورية اليمينية عن التعديل الأول» ومن المفترض - وهناك دليل على هذا - أن جزءاً من الأجنحة الخفية للنزعة الجمهورية اليمينية الجديدة لن تجلب إعادة تعريف أمريكا باعتبارها مجتمعاً مسيحياً على عكس ما وعد به التعديل من

مثل عقلية كوترسكى، لا يكون الدين ديناً حقاً على الإطلاق، كان ما اعتبره
چيفرسون ومن سلك طريقه رفضاً للعناصر الخرافية في الدين. وذلك يعنى فى
الحقيقة رفض المعجزات، كما جاء فى النسخة التى طبعها چيفرسون [من الكتاب
المقدس] والتى اعتنى بحذف المعجزات منها. وما لم يلاحظه كوترسكى هو أن إله
عالم چيفرسون كان متدخلًا وصاحب معجزات كما ينبغى لأى إله، ولكن
تدخلاته كانت من خلال يد العناية الإلهية الخفية. والواقع أن العناية الإلهية
موجودة بكل مكان على حين أن المعجزات تحديدًا نادرة، مثل الرب الذى يؤمن به
من يؤمنون بالتدخل الإلهي.

هل هذه الديانة الأمريكية العلمانية أو المدنية بديلة عن المسيحية؟ إن الدليل
يكشف عن أنها مطعمة بالمسيحية كما هى، وليست متبناة لكى تكون معارضة لها؛
إذ إن الرموز الواردة فى الكتاب المقدس قد استخدمت، بوعى وبلاوعى؛ لكى
تؤكد فى أذهان الأمريكيين البروتستانت فيما بعد الثورة أن الانفصال عن إنجلترا
كان مقدراً من الرب. لقد كانت كلها جزءاً من الخطة الإلهية، وهى الخطة نفسها
التى ساعدت الإسرائيليين القدماء على الهرب من فرعون تحت قيادة موسى. وكما
أعلن توماس بين فى كتابه ذى التأثير الواسع «Common Sense»:

«لم يكن هناك أحد يرغب حقاً فى المصالحة أكثر منى، قبل يوم ١٩ أبريل ١٧٧٥
الحاسم، ولكن فى اللحظة التى عرف فيها الحدث الذى وقع ذلك اليوم، رفضت
مزاج فرعون إنجلترا العاتى المتجهم إلى الأبد، واستنكفت الدنىء، الذى من خلال
لقبه «أبو الشعب» الذى يتظاهر به يستطيع أن يستمع دوغما مشاعر عن ذبح شعبه
وينام ملء جفونه ودمائهم على روحه». [كان يوم ١٩ أبريل هو يوم الهجوم
البريطانى على ليكسنجتون، ويعتبر أول افتتاح للحرب].

ويحتفظ قسم المخطوطات فى مكتبة الكونجرس بأوراق تتعلق بالاقترح الذى
قدم سنة ١٧٧٦ م، وهى تظهر المدى الذى كان بنيامين فرانكلين وچيفرسون
الرئيس الثالث - الذى يعد عادة الأكثر علمانية بين الآباء المؤسسين - يفهمان به
الثورة الأمريكية بمصطلحات الكتاب المقدس. ففى ٤ يوليو ١٧٧٦ م، وهونفسه
يوم الاستقلال، عين الكونجرس فرانكلين وچيفرسون وچون آدمز «لكى يضعوا
شعاراً للولايات المتحدة الأمريكية». وقد عدل اقتراح فرانكلين القصة الواردة فى

الكتاب المقدس عن انشقاق البحر الأحمر . وفي البداية أوصى جيفرسون بـ «بني إسرائيل في البرية تقودهم سحابة في النهار، وعمود من النار في الليل . . .» . ثم تبنى اقتراح فرانكلين وأعاد كتابته . ومراجعة جيفرسون اقتراح فرانكلين هو الذي قدمته اللجنة إلى الكونغرس يوم ٢٠ أغسطس، ولكن، حدث أنه لم يتابع طريقه به . وبالنظر إلى آراء جيفرسون المعادية للمعجزات، يستلفت النظر أن الصورة التي اختارها كانت إعجازية تماما، على حين كانت صورة فرانكلين، كما سنناقشها لاحقا، تشير إلى مجرد تدخل العناية الإلهية لإنقاذ بني إسرائيل (ولا بد أنه كان مدركاً تماماً لمختلف التفسيرات غير الإعجازية لانشقاق البحر، مثل تأثير الرياح والمد والجزر).

وعلى ما يقال فإن غمط الربوبية(*) بين النخب المتعلمة في إنجلترا وأمريكا لم يستمر طويلا في البقاء؛ إذ إن نوعاً من الإحياء الديني اكتسح العالم الناطق بالإنجليزية، ولا شك أن تجاوزه أعطت النخب الفرصة للتعبير عن وجهة نظر تستهجن الحماسة الشعبية . فقد كان هناك سكون في مستوى الإثارة الدينية بعد ما يسمى الصحوة الدينية الأولى - وهو سكون تصادف بشكل أو بآخر مع الفترة الثورية - قبل الصحوة الثانية، التي عمقت الالتزام الأمريكي بالبروتستانتية الأنجليكانية خارج هذه المناطق، مثل نيو إنجلاند، التي لم تفقد حماسها أبداً . وفي ذلك الحين حدث أن سلمت الأنجليكانية معظم الأرض التي استحوذت عليها إلى الثورة . (كان كثير من رجال الكنيسة الأنجليكان من التوري، ورحلوا إلى كندا) . والشخصية الدينية لانجلترا وأمريكا، التي كانت على الدوام مختلفة في التأكيد، بدأت تختلف نوعياً؛ إذ إن النخب الأمريكية ربما تكون قد غازلت مذهب الربوبية باختصار، بيد أن التفلسف المجرد ليس، ولم يكن أبداً، مما يعجب الأمريكيين . ولاحظ أليكسيس توكيفيل الذي جاب أنحاء أمريكا في ثلاثينيات القرن التاسع عشر في كتابه «Democracy in America»: «أظن أنه لا يوجد في أي بلد في العالم المتحضر اهتمام أقل بالفلسفة مما هو حادث في الولايات المتحدة . فليست هناك مدرسة فلسفية خاصة بالأمريكيين؛ وهم يهتمون اهتماماً قليلاً جداً بالمدارس التي تنقسم أوروبا إليها، وأسماؤها لا تكاد تكون معروفة لديهم» .

(*) الربوبية هي الإيمان برب للكون، لا يُشترط أن يكون طبقاً لما جاء في الكتاب المقدس - المترجم .

وغالبًا ما يتم التعامل مع مذهب الربوبية الذي شاع أواخر القرن الثامن عشر في أمريكا على أنه السابقة التي خرجت منها العلمانية. وهي غالبًا ما تعرف بأنها قيم التنوير، التي تم الأخذ بها في الديانة العلمانية الجديدة للماسونيين الأحرار التي ينتمى إليها كثير من الآباء المؤسسين. وقد يكون أقرب للحقيقة أن نقول، مع أخذ التجربة الإنجليزية في الحساب هنا أيضًا، إن مذهب الربوبية قد أفرز مذاهب عديدة ربما يكون أكثرها حظًا في الاعتراف ليس هي اللا أدوية العلمانية وإنما البروتستانتية المتحررة (في المذهب الأنجليكاني خاصة). كان هذا الفرع من التيار العام للمسيحية هو الأكثر انفتاحًا لاكتشافات البحث النقدي في الكتاب المقدس، الذي كان أخذًا في الظهور في ألمانيا بحلول منتصف القرن التاسع عشر، وهي الأرضية التي قام عليها رفض الدراسات لقصص المعجزات. وكان هذا الفرع من المسيحية الذي واجه أقل قدر من الصعوبة في تناول أعمال تشارلز داروين، كما أنه كان على أتم الاستعداد للموافقة على أن روايات الخلق في سفر التكوين خرافات وأساطير.

واللاهوت المتحرر، مثل مذهب الربوبية، يميل صوب التوحيدية (وهو مذهب لطائفة تنكر الثالوث)؛ لأنه لا يستريح لعقيدة أن المسيح هو ابن الله المتجسد. ونوع الديانة التي يستهجنها التحرريون أكثر من غيرها هي الكاثوليكية الرومانية؛ بسبب عقيدتها ومعجزاتها وثقتها، والمذهب الإنجيلي المحافظ (والمعروف كذلك باسم الأصولية البروتستانتية) بسبب ثقته في الكتاب المقدس واعتماده عليه، وإصراره على «قفزة العقيدة» أو تجربة شخصية للخلاص، التي تبدو على النقيض من المبادئ العقلانية. وثمة شيء واحد يمكن أن نكون متأكدين منه هو أن أولئك الآباء المؤسسين لأمريكا والذين أطلق عليهم اسم «الربوبيين»، أيًا كان قدر التبرير، لا بد وأنهم كانوا يتفقون صراحة مع البروتستانت الليبراليين فيما كانوا يكرهونه أكثر من غيره.

وسواء كان جورج واشنطن ربوبيًا «ناعمًا»، أو لم يكن، فإنه كان على إيمان قوى بالرعاية الإلهية، أي يد الرب الخفية التي توجه شئون الناس صوب صالحهم. وفي خطابه الافتتاحي الأول رئيسًا للولايات المتحدة قال مثل هذا وأكثر:

«سيكون من غير الملائم بتاتا أن نحذف في هذا الفعل الرسمي الأول تأييدي الحماسي لأن الرب العظيم الذي يحكم العالم، والذي يرأس مجالس الأمم، والذي يمكن لمساعداته الرعوية أن تعوض كل نقص إنساني، وأن بركاته قد تكرر لحرية

شعب الولايات المتحدة وسعادته، حكومة أسسوها بأنفسهم لهذه الأغراض الأساسية، وقد تساعد كل أداة استخدمت في إدارتها لإنجاز الوظائف التي تطلبها رعايته بنجاح. وفي تقديم الطاعة والولاء للخالق العظيم الذى خلق كل خير عام وخاص، أوكد لنفسى أنه يعبر عن عواطفكم مثلما يعبر عن عواطفى، وعواطف الإخوة المواطنين على نطاق واسع. وليس هناك شعب يمكن أن يعترف ويحب يد الرب الخفية التى توجه شئون العالم أكثر من شعب الولايات المتحدة. فكل خطوة تقدموا بها لتحقيق شخصية وطن مستقل تبدو أنها كانت متميزة بنوع من الرمز الدال على الرعاية الإلهية، وفى الثورة المهمة التى تم إنجازها بنظام حكومتهم المتحدة، فإن التشاور الهادئ والموافقة الطوعية لهذا العدد الكبير من الجماعات المتميزة والتى نتج عنها الحدث، لا يمكن أن يقارن بالوسائل التى تم بها تأسيس معظم الحكومات، دون الرجوع إلى الامتنان الدينى، مع توقع متواضع للبركات التى يحملها المستقبل والتى يبدو أن الماضى قد بشر بها.

كانت العناية الإلهية أقوى فعلاً من المعجزات. فبدلاً من أن تكون شديدة الندرة ومرتبطة بحوادث معينة، مثلما هى الحال فى الكاثوليكية، فإن مفهوم العناية الإلهية الرحيمة غطى كل شىء تقريباً. فكل طفرة محظوظة تصبح تدخلاً إلهياً. هل ساقط الريح السفن الإسبانية إلى الصحور سنة ١٥٨٨؟ لقد كان ذلك بفعل العناية الإلهية. هل نجا المستوطنون البيوريتان الأصليون من أول شتاء؟ كان الفضل فى ذلك للعناية الإلهية. هل قضى الجيش الناشئ على قوات الملك؟ لقد كانت العناية الإلهية وراء ذلك. هل عاش جيش واشنطن المهلهل أثناء محنته فى قالى فورج؟ لقد كان هذا أيضاً من فعل العناية الإلهية. وفى لاهوت العناية الإلهية لا يتدخل الرب سوى بهذه الطريقة لصالح العادل والمستقيم. أو إذا قلبنا المعادلة، يكون الرب جانب الرابح وبهذا يكون «الحق قوة» (*). هذه الاعتقادات مكونات مهمة ليس بالنسبة للرؤية الأصولية للعالم فقط، فلم تكن مرفوضة ممن يسمون أنصار مذهب الربوبية فى أمريكا أواخر القرن الثامن عشر، والذين كانوا على قناعة تامة بأن الرب الذى لم يكونوا يعرفونه تماماً يقف إلى جانب أمريكا. وهذه بطبيعة الحال طريقة إنجليزية خالصة فى النظر إلى الأمر. وإذا كانوا هم الشعب المختار، والرعاية الإلهية إلى جانبهم، فإن هذا كله جزء من الشىء نفسه.

(*) تلك ترجمة القول الأمريكى المأثور: Might is Right. - المترجم .

والجدل الحى فى الولايات المتحدة حول المعتقدات الدينية للأباء المؤسسين ليس فى الحقيقة جدلاً حول الحقيقة التاريخية بحد ذاتها، ولكن حول معركة للسيطرة على الذاكرة الجماعية الأمريكية، فى سبيل السيطرة على طريق أمريكا فى المستقبل على النحو المتصور. وكل من يريد طعماً لهذه الرفاهية الثقافية لا يحتاج سوى أن يدخل على أحد المواقع العديدة فى شبكة الإنترنت المكرسة لأحد جانبي هذا النزاع المستعمر. وكل تصريح دينى من شخص مثل جيفرسون يتم حشده على موقع واحد، وكل ما ينطق به ضد الدين يتم حشده على موقع آخر. ومن الصعب تصوير أن الإنجليز يحصلون على شىء مماثل فى إثارته مثل المعتقدات الدينية لدوق ويلنجتون، مثلاً، ولكن ربما كان تقياً فى العلن وشكاكاً فى السر، تماماً مثل رجال الدولة الأمريكيين الذين تستمر المعركة حولهم. هذه هى الكيفية التى كان عليها مثل هؤلاء الرجال وما يزالون عليها إلى حد كبير. وإذا كان النوع الأنجلو سكسونى من البروتستانتية، كما قال أحدهم ذات مرة، يميل إلى أن يتسم بالتخفيف، فإن هذا لا يحميها من التعصب الشرس.

ويبدو الحكم المستقر للمؤرخين المحترفين الآن على أنه يقرر أن الأمريكى المتوسط فى الفترة الثورية، بما فى ذلك المشرع الأمريكى العادى، كان شخصاً متديناً، على الأقل من الناحية السطحية للعقيدة. أما مدى عمق ما نسميه اليوم روحانياته فقد يكون موضوعاً لمزيد من الجدل. بيد أن تلك كانت أوقات تدين بشكل عام؛ إذ كان التدين متوقعاً. وقد استنتج جامعو معرض مكتبة الكونجرس سنة ١٩٩٨م، والقائم على أساس النصوص الرسمية وغير الرسمية للفترة، من الأدلة المعروضة:

«الكونجرس القارى الكونفدرالى، هيئة تشريعية حكمت الولايات المتحدة من ١٧٧٤م إلى سنة ١٧٨٩م، وقد احتوى على عدد غير عادى من الرجال المتدينين بعمق. وكمية الطاقة التى استثمرها المجلس فى تشجيع ممارسة الدين فى الوطن الجديد فاقت تلك التى أنفقتها أية حكومة وطنية أمريكية تالية. وعلى الرغم من أن مواد الاتحاد الكونفدرالى لم تمنح السلطة رسمياً إلى الكونجرس بأن يشغل نفسه بالدين، فإن المواطنين لم يعترضوا على مثل هذه الأنشطة. وغياب الاعتراض على هذا النحو يشى بأن كلاً من المشرعين والعامّة اعتبروا أنه من المناسب للحكومة الوطنية أن تطور المسيحية غير المسيطرة وغير المجادلة.

وعين الكونجرس قساوسة له وللقوات المسلحة ، وراقب نشر الكتاب المقدس ، وفرض الأخلاقيات المسيحية على القوات المسلحة ، كما منح الأراضي العامة لنشر المسيحية بين الهنود الحمر . والإجازات الوطنية في عيد الشكر وفي يوم التواضع ، والصوم والصلاة ، كانتا تعلنان من قبل الكونجرس مرتين سنويا على الأقل طوال الحرب . وكان الكونجرس يسترشد «بلاهوت ميثاق» ، وهو مذهب إصلاحى ، عزيز بصفة خاصة على قلوب البيوريتان فى نيوإنجلاند ، يقول إن الربُّ ربط نفسه بميثاق مع أمة وشعبها . وهذا الميثاق اشترط أنهم «قد ينعمون بالرخاء أو تحل عليهم النقمة» وفقاً لطاعتهم العامة أو عصيانهم العام كما تظهر . وكانت الحروب والثورات ، وفقاً لهذا ، تعتبر نقمة ، عقاباً إلهياً على الخطايا يمكن للأمة أن تنقذ نفسها منه بالتوبة والإصلاح .

وأول حكومة وطنية للولايات المتحدة كانت مقتنعة بأن الرفاهية العامة فى أى مجتمع تعتمد على حيوية ديانتها . ولاشئ سوى روح من الإصلاح الكونى بين كل طبقات ودرجات مواطنينا ، حسبما أعلن الكونجرس إلى الشعب الأمريكى ، «سوف يجعل منا شعباً مقدساً بحيث قد نصبح سعداء» .

وفى افتتاحية كتاب «American Exceptionalism» ، يتناول سيمور ليبست اعتراضاً على التأكيد على العوامل الدينية فى مناقشة الشخصية الخاصة للمصير الأمريكى (والهوية الإنجليزية بالتوازي) مؤداه أنها ربما كانت عوامل مهمة ذات مرة ، بيد أنها لم تعد كذلك .

«بعض الذين ينتقدون التأكيد على الاستثنائية الأمريكية كطريقة لفهم الحوادث الجارية والمستقبلية ، قد تساءلوا عن الإصرار على أن العوامل التاريخية المرتبطة باستيطان المستعمرات وأيديولوجية المؤسسين مستمرة فى التأثير على السلوك والقيم الأمريكية [والأيديولوجية التى يشير إليها هى المذهب البيوريتانى بالطبع] . لقد تعامل ماكس فيبر مع هذا الموضوع بطريقة ممتعة وذكية إذ إنه اقترح أن التاريخ يعمل لحسم المستقبل بنفس الطريقة التى يحسم بها الزهر لعبة ما . ووفقاً لفيبر ، بفهمه أن تاريخ أمة ما يبدأ مثل لعبة لم يتم رمى الزهر فيها فى البداية ، بيد أنه لا يلبث أن ينحاز إلى الاتجاه الذى يأخذه أى ناتج من الماضى . وهو ناتج له

شبيه بالطريقة التي تتشكل بها الثقافة . وفي كل مرة يظهر فيها الزهر برقم محدد تتزايد احتمالات ظهور هذا الرقم ثانية» .

وأكثر مؤلفات فيبر تأثيراً "The Protestant Ethic and the Spirit of Capitalism" كان مأخوذاً من ملاحظاته في أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين عن ألمانيا، ومؤداها أنه في أكثر الأجزاء كالفينية [أي أتباع جون كالفن] في البلاد كانت الرأسمالية أكثر نجاحاً . وقد لاحظ أن المذهب الكالفيني قد ترك تأثيره على شخصيات أتباعه، بفرض أعباء روحية وعاطفية مؤلمة عليهم، وفوق هذا وذاك خوفاً من اللعنة . فالعمل الشاق وإنكار الراحة أو المتعة، هما العلامتان الدالتان على «الأخلاق البروتستانتية» ، وأصول رأس المال التي تم تحصيلها كانت تعتبر علامة على موافقة الرب، ومن ثم كانت علامة على أنه ربما أمكن تجنب اللعنة . وحيثما كان المذهب الكالفيني سائداً، كانت هذه الفلسفة تشكل ثقافة المجتمع بأسره . وأولئك الذين تم إدخالهم في تلك الثقافة كانوا يتشكلون نفسياً بها، سواء كانوا يقبلون عن وعي مذاهب كالفن الدينية المحددة أم لا . فما أن يتم رمي الزهر، يظل يرمى باستمرار . وربما كان يتكلم عن نفسه أيضاً: فهو متشكك في الأمور الدينية بينما كان أبوه كالفينياً . وحتى إذا لم يعد هناك كالفينيون يؤمنون بهذا المذهب على الإطلاق، فإن ثقافة تشكلت بفعل الكالفينية سوف تكون جادة في العمل ومتوجسة من المتعة، كما أنها ستكون في الوقت نفسه ثقافة طماعه ومذنبه . ويمكن للقارئ أن يحكم بنفسه إلى أي مدى يصدق هذا على إنجلترا أو أمريكا في أيامنا هذه .

كان الكالفينيون في الواقع أصوليين يتبعون الكتاب المقدس حرفياً بالمعنى الكامل للمصطلح؛ إذ كان الدين يتعلق بالحياة كلها، وكان الكتاب المقدس مرجعهم الوحيد في مسائل الدين . وخريطة الدين التي كانت مفتوحة أمامهم بأفكار جون كالفن (١٥٠٩ - ١٥٦٤م)، الأكثر راديكالية بين كل المصلحين البروتستانت في القرن السادس عشر، كان مركباً ومعذباً، بل ومصدر تهديد . وكانت المطالب التي تفرض على المسيحيين ضاغطة . ولكي تعرف ما يطلبه الرب من المرء، كان من الضروري أن تبحث في الكتاب المقدس بدقة وتهتم دوغماً نهاية حول معنى كل فقرة . أما الحركة البروتستانتية الموازية والتي بدأها مارتن لوثر (١٤٨٣ - ١٥٤٦م)

فلم تكن أقل تركيزاً على الكتاب المقدس . إذ كانت لها أيضاً مطالب ضاغطة . وقد اتفق كل منهما على أن الإنسانية تلقت رسالتها عن الخلاص مباشرة من صفحات كلمة الرب وليس من خلال القساوسة والكنيسة ، ووافق كلاهما على أن البشرية نفسها كانت داخلياً شريرة ومحرومة وعاجزة . بدون مساعدة الرب . عن القيام بأى فعل طيب . وقد جلبت المسيحية البروتستانتية إلى مركز الانتباه المسيحى ، وقد سهل هذا كثيراً حقيقة أن صناعة الطباعة - الجديدة نسبياً - قد جعلت من الممكن أخيراً إنتاج الكتب على نطاق واسع . ويكاد يمكن للمرء أن يقول إن الإصلاح كان عليه أن ينتظر حتى اختراع الطباعة قبل أن يحدث . فبدون نسخة متاحة من الكتاب المقدس فى اللغة المحلية ، كان الاعتماد على حكمة القساوسة وتوجيهاتهم أمراً حتمياً .

كانت الكنيسة الكاثوليكية دائماً تغذى المؤمن بمحتويات الكتاب المقدس من خلال مصفاة تفسيرها الرسمى الخاص . وكانت النظرية هى أن كمال الديانة المسيحية متضمن فى تعاليم الكنيسة الرسمية ، وكان الكتاب المقدس رقيقاً لهذا ، بغرض الإيضاح ، والتنوير ، والحض على الفضيلة . ولم يكن يعتبر بمثابة المصدر الأولى للعقيدة ، على الرغم من أنه كان هناك مبدأ مقبول بأن تعاليم أية كنيسة لا يجب أن تتعارض مع العهد الجديد . كانت الكنيسة نفسها هى التى قررت ، فى القرن الرابع ، أى النصوص تنتمى إلى النسخة الرسمية ، أو القانون الكنسى ، وأياً لا تنتمى . وفى دائرة معارف اللاهوت «The Encyclopedia of Theology» وصف لخاتمة عملية طويلة من الجدل والقرار على النحو التالى :

«فى سنة ٣٦٧ حدد أثناسيوس الكتب السبعة والعشرين للعهد الجديد ، بالإضافة إلى أسفار العهد القديم ، باعتبارهما سوياً يحتويان على القانون الراسخ (ليس لأحد أن يضيف شيئاً أو يحذف شيئاً منهما . . .) . وفى الفصل الثانى من مرسوم جيلازيوس الذى يرجع إلى مجمع روما سنة ٣٨٢ تم تحديد الأسفار السبعة والعشرين التى يضمها العهد الجديد ، وتم التأكيد على هذا سنة ٤٠٥م بخطاب من البابا إنوسنت الأول وكذلك من قبل المجامع المسكونية التى عقدت فى أفريقيا ، هيبورجوس (٣٩٣) وقرطاج (٢٩٧ ، ٤١٩م) . وبعد القرن الخامس لا توجد مراسيم جديدة بشأن القانون الكنسى» .

والى هذا المدى فليس من الشطط أن نتحدث عن الكتاب المقدس بوصفه من خلق الكنيسة . لقد كانت السلطات الكنسية ، فى القرارات التى أوردناها سابقاً ، هى التى رفضت بعض النصوص وقبلت البعض الآخر ، وفقاً لتوافقها أو تناقضها مع الديانة الصحيحة أيامها . وثمة جاذبية مسبقة «للكتاب المقدس» باعتبارها المصدر الأسمى للعقيدة التى يمكن بها الحكم على الكنيسة نفسها ، قبل سنة ٣٦٧م ، وهو أمر ليس منطقيًا ببساطة . هذه الصعوبة عاودت الظهور على السطح فى القرن السادس عشر ، حينما وضع المصلحون البروتستانت الرئيسيون من جديد أصول القانون الكنسى ، كما أطلق على قائمة الأسفار التى اعتبرت أصيلة روحياً ، ونبذوا عدة أسفار (باعتبارها مزيفة : أبو كريفا) لم تكن ضمن القانون العبرانى الأسمى كما حددته السلطات اليهودية ، ولكن الكنيسة الكاثوليكية والكنيسة الشرقية الأرثوذكسية قبلتها منذ ألف سنة مضت . وكان السبب فى هذا راجعاً جزئياً إلى أن المصلحين لم تعجبهم العقائد التى ظهر أن الأسفار المرفوضة كانت تحتويها .

وبعد حركة الإصلاح الدينى فى القرن السادس عشر ، اتهمها البروتستانت الذين كانوا معادين للكنيسة الكاثوليكية بأنها تشوش معنى نص الكتاب المقدس ، بحيث لا تشمل محتوى التعاليم الكاثوليكية . وقد زعموا أن هذا هو السبب فى أن الكنيسة كانت عازفة تماماً عن السماح بالاطلاع المفتوح على الكتاب المقدس كما عارضت نشر الترجمات الإنجليزية . ولا شك فى أن هناك قدرًا من الحقيقة فى هذا . بيد أنه لم يعد ممكناً وجود تفسير موضوعى غير منحاز للكتاب المقدس كما هو الحال بالنسبة لمسرحيات شكسبير . وحتى مع وجود أعظم المقاصد النبيلة فإن نفس النص يمكن أن يعنى عدة أشياء مختلفة . ومن ثم فإن تلك الأجزاء من الكتاب المقدس التى أولتها الكنيسة الكاثوليكية أهمية هامشية فقط ، يمكن الآن أن تؤخذ بجديّة على أنها كلمة الرب كما يمكن التدبر فى معناها مجدداً . وكان هذا مهماً بشكل خاص فى تلك القصص التى يرويها العهد القديم والتى فسرتها الكنيسة على أنها تنبأ وتمهد لقدم المسيح ووجود الكنيسة ذاتها فيما بعد .

ولم يشعر البروتستانت أن عليهم أن يقبلوا ذلك التفسير ، حتى لو عرفوا به . فقد

كان بوسعهم أن ينظروا إلى تلك الفقرات مجدداً: وكان كل شخص يمكن أن يفسر الكتاب المقدس بطريقته. ولم يكن بوسع البروتستانتى الطيب تحديداً أن يقبل تفسيرات لفقرات معينة من العهد القديم اعتبرتها الكنيسة الكاثوليكية توقعاً لاهتمام الرب بصالحها. وعلى العكس، فقد وجدوا نبوءات مختلفة تماماً (أساساً فى العهد الجديد) تخص الكنيسة الكاثوليكية: إنها كانت وكيل الشيطان الذى يجب محاربه وهزيمته قبل نهاية الزمان. وبغض النظر عن التهمة البروتستانتية العامة بأن الكنيسة فى العصور الوسطى قد أخفت نص الكتاب المقدس عن الناس؛ لأنها بوضوح قاىضت تعاليم الكنيسة، فهى تهمة جدلية أكثر من كونها حكماً تاريخياً. وهناك مساحات حيث كان المعنى الدقيق لنص الكتاب المقدس محل نزاع ساخن بين المصلحين البروتستانت والمصلحين الكاثوليك المضادين. ولكن حيث إنه كان واضحاً لأى قارئ عارض - لو سُمح له بأن يطلع على النص - لا يمكن لأحد أن يقول إن الكنيسة قد أخطأت. والحكم على تعاليم الكنيسة من خلال الكتاب المقدس ممارسة أكثر صعوبة من هذا. وهناك نصوص عديدة يبدو معناها الأكثر وضوحاً هو المعنى المفضل تقليدياً من جانب البروتستانت، ولكن نصوصاً أخرى تميل صوب التفسير الكاثوليكي بدرجة أكبر.

وما زعم المصلحون أنهم وجدوه فى الكتاب المقدس كان صيغة أكثر تبسيطاً من المسيحية، التى أخذت من التقوى المتزايدة عبر العصور، فكانت لها جاذبية قوية متجددة. وكثير من فروض الدين التى فرضت على الناس وفقاً للمذهب الكنيسة إما غابت تماماً أو تم التلميح إليها فقط فى الكتاب المقدس. وبينما قالت التعاليم التقليدية: إن هناك سبعة أسرار مقدسة، كانت الأدلة المستمدة من الكتاب المقدس تشير فقط إلى اثنين. وإذا ما كانت الكنيسة هى المفسر الأصيل للمسيحية، ومرشداً يعتمد عليه للوصول إلى المذهب الصحيح، فلا شىء من هذا يهم إذن. وإذا كان الكتاب المقدس هو المرشد الصحيح الوحيد، من ناحية أخرى، فإن الكنيسة تبقى متهمه بتشويش الإنجيل لكى يناسب أغراضها الخاصة. وعلى سبيل المثال فإن الممارسات الكنسية مثل ربط العلمانيين بالعشاء الربانى فى نوع واحد فقط، هو النبذ، يبدو تناقضاً صريحاً مع كلمة الرب. بينما كانت الأخلاقيات الشعبية فى

العصور الوسطى تعتمد على مثل هذه الآليات في التذكرة بالردائل والفضائل ، فإن المسيحية الإصلاحية المعتمدة على الكتاب المقدس قدمت العبارات المجردة والبسيطة للوصايا العشر . بينما كانت المسيحية الكاثوليكية في العصور الوسطى معتمدة بقوة على الطقوس والصور والمساعدات المرئية . فإن المسيحية البروتستانتية التي أعقبتها اعتمدت إلى حد كبير للغاية على النصوص .

وإذا لم يكن هذا شيئاً آخر ، فقد كان حافزاً رئيسياً على انتشار التعليم ، على الرغم من أنه على مدى فترة طويلة كان هناك انحياز لصالح تعليم الناس العاديين القراءة دون الكتابة . والخوف الكامن لدى البروتستانت وخاصة البيوريتان في إنجلترا وأمريكا في النصف الأول من القرن السابع عشر ، كان مبعثه أن الديانة القديمة سوف تفرض من جديد عليهم بسلطة الدولة ، وسيكون ممنوعاً عليهم العبادة طبقاً للشكل الجديد الذي اختاروه للمسيحية . وبما أن الديانة القديمة لم تكن خاطئة وحسب وإنما كانت هي نفسها بوابة الجحيم ، من وجهة نظرهم ، فإن التهديد كان مميتاً . وذكري اضطهادات البروتستانت تحت حكم ماري تيودور في منتصف القرن السابق كانت محفوظة حية تماماً من خلال قراءة كتاب فوكس (Book of Martyrs) وهو الكتاب الوحيد ، بغض النظر عن الكتاب المقدس ، الذي قيل إنه يمكن أن يوجد في كل كنيسة ومنزل في المملكة . وربما كان عملاً باهراً من أعمال الدعاية أكثر منه دراسة تاريخية دقيقة ، ولكن أولئك الذين قرأوه صدقوه حرفياً . هذا ، بالإضافة إلى التقارير الحية (والتي تحمل قدرًا من المبالغة) عن اضطهاد البروتستانت تحت ظل محاكم التفتيش الإسبانية ، أقنعت أجيالاً من البروتستانت الإنجليز والأمريكيين بأن الكاثوليكية الرومانية كانت هي العدو القاسي الشرير لكل شيء عزيز عليهم .

ومع فهم الحقيقة متأخرًا ، يبدو أن الجانبين كانا يختلفان أشد الاختلاف في مواقفهم من الكتاب المقدس عندما يتعلق الأمر بفهمها لعلاقة العهد القديم بالحوادث اللاحقة . وهو يتألف إلى حد كبير من سرد زمني متتابع لتاريخ بني إسرائيل ، شعب الرب ، أمة أو قبيلة ، أو مجموعة من القبائل ، مكثت زمانًا طال أم قصر سويًا كمجتمع مرئي ، خلال كل ما مر بهم من محاولات مختلفة . واعتمدت

الكنيسة أنها هي نفسها صارت شعب الرب، ولكن التشابه مع بني إسرائيل كان أبعد ما يكون عن الكمال. فالكنيسة لم تكن أمة ولا مجتمعاً مرئياً يتمركز في مكان واحد. لقد كانت جماعة دينية، منتشرة، وموجودة عبر كل الأمم في العالم المعروف. وبما أن الكنيسة لم تكن أمة فإنها لم تفعل الأشياء التي تفعلها الأمم، مثل الاحتفاظ بالجيوش وخوض الحروب، أو غزو الأراضي، كما فعل بنو إسرائيل القدماء. فقد كانت معركتها روحية. وإذا ما كانت تريد النوع الآخر، مثل الزعم بتحرير الأرض المقدسة من المسلمين، فقد تعيّن عليها أن تطلب من الأمراء الكاثوليك أن يحاربوا من أجلها. ولكن البروتستانت رأوا العهد القديم بصورة أكثر حرفية. وبالنسبة لهم كانت إسرائيل الجديدة أمة مثلما كانت إسرائيل القديمة بالضبط. وبينما كانت كنيسة العصور الوسطى قد أضفت مسحة روحانية على رسالة العهد القديم، وتعاملت مع معظم ما جاء به على أنه مجاز مركب أو مزاعم وادعاء، فإن البروتستانت أخذوه بقدر أكبر من الحرفية، وتعاملوا معه بقدر أكبر من السياسة.

وهكذا فإن الروايات الكبرى التي يسردها العهد القديم قد تجسدت دائما بقوة في المذهب البروتستانتي. وقد اقترح بعض المؤرخين أن الأمريكيين - الذين يفتقرون إلى تاريخ طويل يخصهم - كانوا أسعد ما يكونون في تبنى تاريخ بني إسرائيل القدماء لتعويض هذا النقص. وقبل هذا، كان بوسع البروتستانت الإنجليز الأوائل أن يجدوا مزية مشابهة. وتناول تاريخ بني إسرائيل باعتباره نوعاً من ما قبل التاريخ الإنجليزي شتت الانتباه عن ذلك «الما قبل التاريخ» الذي هو أقرب إليهم، أي تاريخ إنجلترا كبلد كاثوليكي (والذي كان البيوريتان ينكرونه أو يخجلون منه). وعندما قام رئيس الوزراء ديفيد لويدي جورج بتولى رئاسة الحكومة البريطانية التي أصدرت وعد بلفور سنة ١٩١٧م، الذي وعد اليهود بوطن قومي في الشرق الأوسط، قال إنه ربما كان يعرف عن ملوك بني إسرائيل أكثر مما يعرف عن ملوك إنجلترا. وكان لابد لهذا أن يعكس حالة عقلية شائعة جدا بين معاصريه، لا سيما أولئك الذين على شاكلته.

* * *